شتـاء الألـوان

-

مشدوهةٌ كل العيون إليكِ ترقُبُ تفاصيل هذا المشهد الذي طرأ على حياتك فجأة، سادرةٌ كل العقول تتطلّع إلى حقيقة هذا التغيير الذي بدأ يغزو ملامحك؛ الكل غارق في بحر التخمينات، الكل تائه في محيط التساؤلات، الكل منجذب إلى سر هذا السحر الذي جلبوه إليك بعُملةٍ صعبة الفهم، فبأي لغة أقرأ هذه الألوان التي تعددت في صُنع جمال أرادوه لكِ بسرعة البرق وفي أيام الشتاء الماطرة؟ ألم تكوني سيدتي جميلة من قبل أن يطرأ هذا الطارئ الذي لم نفهم سره؟ ألم تكوني معشوقة من قبل أن نقرأ هذه التعديلات المنصوص عليها في لافتة الإعلانات الجمالية؟ ألم تكوني ساحرة من قبل أن يتشكّل هذا الإبداع الزائف على جسدك؟ ما الذي يجري؟ حركة واسعة، نشاط كبير، جنود خبراء الصحة والجمال تزحف نحوك؛ تجري التحليلات، تتفحص وضعك الصحي، تتنافس على تغيير مظهرك، بربك ما الذي يحدث؟

تتقد الأسئلة بأعماقي نارا لاهبة لا تريد الانطفاء، ها هي تزداد اشتعالا في هذا اليوم البارد وأنا أرى المطر يمحو كل بصمة لونٍ اجتهد المعنيون في رسمها على جدار رُستُمِيَتُكِ[1] العتيق وجمعٌ من الناس يقف تحت خيوط المطر تعلو ملامحه الدهشة وأحدهم يردد بغضب: ها هي جهودنا يكسرها المطر الذي لا أظنه سيتوقف، فما العمل إذن؟

صرخ الفضول بداخلي صرخة عنيفة هزت أركان ذاتي ودفعتني بقوة لأتقدم نحوه وأسأله:

- اسمح لي سيدي؛ هل قلت لي ما الذي يحدث؟

حدّج إلي بنظرات تصبغها المرارة وقال: ألا تشاهدين هذا المطر المتهاطل بغزارة كيف شوّه الألوان التي ألبسناها لهذه الواجهات؟

- بلى، أرى بقوة هذه الملامح الجديدة ثم تمعنت في الواجهة التي كنا نقف أمامها؛ كانت مصبوغة بألوان حوّلتها ظروف المناخ الفصلية بأمطاره إلى خيوط متشابكة، متداخلة شوّهت لونها الحقيقي.

- ما دمتِ شاهدة على ما ترين؛ فلم تسألينني؟

- أقصد سيدي ... لماذا اخترتم الأيام الماطرة لتغيير ألوان الواجهات؟

- آه، يبدو أنك غائبة متغيبة تماماً؛ أنصحك إن كنتِ تتوقين إلى معرفة ما وراء الألوان أن تحضري اجتماعنا هذا المساء.. خذي، إنها دعوة مني رغم أنها خاصة بأصحابها المعنيين..

مددتُ يدي، استلمت الدعوة ورحت أقرأ في صمت محتواها: (يسر لجنة طوارئ الصحة والجمال أن تدعوكم لاجتماعها الاستعجالي لدراسة آخر تطورات مهمتكم).

اجتماع؟ رددتُ السؤال في قرارة ذاتي.. أكيد نعيش ظرفا طارئا يحتِّم صناعة اجتماع وربما اجتماعات تنتهي دون شك بنتائج مرموقة، لأنني ما رأيت في السراء اجتماعا أثمرت نتائجه، فاجتماعات الطوارئ فقط من تنطق علناً تتحدى المستحيل لإحداث التغيير المفاجئ بسرعة جنونية، يأفل وقتها الظلام، يخضر كل يابس، تينع الأزهار في الأراضي غير الصالحة، تفيض السدود التي سبق الإعلان عن جفافها، تُزَفَّت الطرقات التي استحالت تهيئتها في وقت غير بعيد، تُرمَّم البنايات،

تُصبغ الجدران مثلما ترى عيناي اليوم ويرى الجميع وتصيبه الدهشة لكنه يركن إلى صمتٍ حائر؛ أما أنا أركن إلى حديث نفسي، أُحصي الهُنيهات المتصرمة أمامي بتثاقل، أتلهف لجواب الاجتماع.
جَنَّ المساء، دلفتُ إلى قاعة المحاضرات المُدَون عنوانها على الدعوة التي أحمل، شدّ انتباهي السيد ناصح – خبير الصحة والجمال - هكذا قرأت على اللوحة الموضوعة أمامه وهو يتحدث من فوق المنصة إلى جمهوره المتواجد بالقاعة يُصيغُ السمع إليه ولافتات إعلانية بأسماء مؤسسات مختصة في التجميل معلّقة وراءه، فكان يزف إليهم هذا النبأ وملامحه ترقص طربا: أبشروا أيها السادة الزملاء؛ إن محطة الأرصاد الجوية تنبأت قبل لحظات بتراجع الاضطراب الجوي وملاحظتها لأجواء مشمسة لطيفة تمتد إلى الأسبوع القادم، لانزال في بداية هذا الأسبوع، بإمكانكم إحداث المعجزة، بإمكانكم أن تجعلوا الألوان تنطق؛ إنها الترجمة الحقيقية لجهودنا المُساهِمة في الحفاظ على ذاكرة هذه السيدة الكنز، سيدة التاريخ/ الحضارة/ التراث/ الشهداء... جهود سنُجني بها التهاني والمدح والاعتبار، و...و... و... من قِبل السيد الملاحظ العام؛ لننسى ما شوّهه المطر ونفكر في الآتي، فلتكن الألوان مبهرة، زاهية، أنيقة، متناسقة لتُدخل الحبور على أعماقه؛ لا، وما رأيكم في انتقاء لون واحد فقط؟
الأصفر مثلا.
- لا أرى أنه يليق بهذه المناسبة رد أحد الحاضرين.
- إذن، نفكر في البنفسجي.
- ولا البنفسجي حسب رأيي يليق بهذه الزيارة قال آخر؛ ونطق صوت: لنختار اللونين الأبيض والأزرق حتى يتأكد السيد الملاحظ العام أن سيدتنا لا ترتدي إلاّ ثوب النقاء بزيها الأبيض ولا تتوق إلى الأفق إلاّ بطموح وأمل كبيرين بزيها الأزرق، بل أنا متأكد أنها ستزداد بهاءً يطمئن له زائرنا.
صفق الجميع، ابتسم السيد ناصح ابتسامة عريضة وقال: والله أحسنت قولاً ثم أردف بعد أن أرسل بنظره إلى الجميع: يبدو أن تصفيقاتكم دليل على موافقتكم لهذا الإختيار.
اعتصرت أعماقي حيرة لخطاب الخبير ناصح، زلزل أعماقي، تركتُ الجموع المختصة في التجميل تتحاور على الألوان مع الخبير علّها تصل إلى جمال فائق يليق بهذه السيدة وشردتُ بعيداً لهُنيهات سرعان ما عدت أتحدث في دخيلتي: إذا، هناك زيارة للملاحظ العام.. ثم تساءلتُ في دهشة صامتة: لماذا يا ترى غضّ الجميع النظر عن الكنوز التي تَحْتجنُ بأعماقك وتترجم جمالك الحقيقي؟
نعم، كنوز ثمينة لا تحتاج إلى ألوان زائفة تُشوه صورتك؛ وقفتُ فجأة: هل تسمح لي سيدي بالتدخل؟
ساد القاعة صمت رهيب وتحوّلتْ كل العيون نحوي تنظر إلي باستغراب.. رد الخبير وألوان الدهشة تصبغ ملامحه: لا أظنك خبيرة في مجالنا، لكن لا بأس ما دام في داخلك شيء نستمع إليه..
صحيح لستُ خبيرة تصوركم للصحة والجمال لكنني رأيت أن مفهومكم للجمال اختزل الجمال الحقيقي لسيدتنا؛ تناسيتم الألوان العديدة المتعددة التي رسمتْ صورتها الأبهى والأجمل منذ الأزل، صورة أبهرتْ وستُبهر ملاحظكم العام وكل الملاحظين عبر الزمان والمكان..

- أوه.. توقفي من فضلك.. لسنا بحاجة إلى فلسفة أحد، نحن هنا في مهمة لتغيير مظهر هذه السيدة لا غير، رد على فلسفتي كما قال.

المظهر؟ هذا الذي يهمكم؟ مظهر تخشون عليه من تقلبات المناخ وتعلنون لأجله حالة الطوارئ؟ مظهر يتلاشى ويزول بانتهاء مهمة الملاحظ العام؟
المظهر يا خبير ويا خبراء خُدعة، زيف ونفاق لا تستحقه سيدتنا، لديها ألوانها التي لا يمحيها المطر ولا تُتلفها الرياح، لا تتأثر بهزات العواصف ولا بحِمم البراكين؛ ألوان رائعة بأنوارٍ مضاءة في كل الفصول صالحة لكل زمان ومكان .
- مثلما قلتُ لك مهمتنا ليست فلسفية.
- جميل جدا إن كانت الحقيقة فلسفة، ألم تذكر في خِطابك قبل قليل أنها سيدة التاريخ والفكر والحضارة و... و... ؟
- أكيد، هذا غير قابل للنكران .. رد علي.
- إذن، أنا أحتفظ بلوحات تؤكد شهادتك هذه.
- لوحات؟
- نعم.. لوحات ملونة بدماء الشهيد علي معاشي[2] و ممزوجة بمعزوفاته الفنية، مطرّزة بأفكار ابن خلدون[3] وجاك بارك[4]، منقوشة بأشعار بكر بن حماد[5]، مزخرفة بآثار [لَجْدار[6] وقلعة بني سلامة[7]،مُبتلّة بحكاية فيلم المحنة[8] وألوان أخرى لا تُعد ولا تُحصى؛ كلها صور تدعوكم للغوص في بحر أعماقها لترجمة جمال هذه السيدة بدل التحليق في أجواء الزيف باسم المظهر.
ها..ها..ها.. قهقهات كان صداها يملأ القاعة وصل سمعي ممزوجا بكلمات الخبير ناصح ساخرا:
- أهذا ما ترينه مناسبا ليُقدَم إلى السيد الملاحظ العام؟ اسمعي سيدتي، المظهر له مكانة لا يفهمها الفلاسفة ولا يمكنني أن أُقدم صورة سيدتنا إلاّ بتغيير مظهرها حتى وإن كان فصل الشتاء يقف ضدي؛ المهم أن يرى السيد الملاحظ العام والمرافقون له سيدتنا بلونٍ أنيق؛ أما لوحاتك وصورك الفلسفية احتفظي بها في أرشيفك الخاص؛ أوقف حديثه معي ثم أعلن نهاية الاجتماع.
استعد الجميع للخروج، بينما وقف أمامي الشخص الذي دعاني قائلا: أرجو أنك فهمت الآن سر الحدث.
تبعثرت الأفكار بذاكرتي واختنقت الكلمات بداخلي، فأبى لساني النطق؛ اكتفيت بالتحديق إليه، مُتحجرة الخُطى حائرة محتارة أتجرّع كؤوس الآسى وهو يهمس إلي؛ يُنهي آخر جملة معي: هذا هو منطق المناسبات/ الزيارات..
أطلقت أعماقي تنهيدة حارقة، استدرت عائدة أدراجي أقرأ ألوانك سيدتي بلغة المظهر الذي يرسم للشتاء ألوانا.

<u>هوامش:</u>
[1]: تعني تيهرت الرُستمية، أي مدينة تيارت التي أسسها عبد الرحمن بن رُستم، و هي مدينة جزائرية تقع غرب الجزائر العاصمة.
[2]: علي معاشي، أول فنان جزائري يستشهد على أيدي الإستعمار الفرنسي بمنطقة تيارت.
[3]: إبن خلدون، العلامة الشهير الذي كتب مقدمته بالمَغَارة الموجودة بضواحي مدينة فرندة بمنطقة تيارت.
[4]: جاك بارك، المفكر الفرنسي الذي عاش بمدينة فرندة، و ترك وصية بشأن تحويل مكتبته إلى هذه

المدينة عربون محبة و وفاء لمدينة صباه.
[5]: بكر بن حماد، من أوائل الشعراء الذين عرفتهم منطقة تيارت أيام الدولة الرستمية.
[6]: لَجْدار، معلم أثري على شكل أهرامات قائمة على قواعد مربعة تقع بين تيارت و فرندة.
[7]: قلعة بني سلامة، المكان الذي تتواجد به المغارة التي شهدت ميلاد مقدمة إبن خلدون.
[8]: المِحنة، فيلم من إخراج، إنتاج و سيناريو الإخوة زروقي من مدينة تيارت؛ فيلم أُنجز في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية لسنة 2007 و تم عرضه بالعاصمة الجزائر و بتيارت.